العزلة في الفلسفة الوجودية

رشا ماهر البدري(*)

"ليس لي إلا صديق واحد فحسب ذلك هو الصدى. ولما كان "الصدى" صديقي؟ لأني أحب آلامي وهو لا يسلبني إياها. وليس لي سوى شخص واحد أودعه سري، ذلك هو "صمت الليل". ولما كان مستودع سري؟ لأنه يصمت."

كيركجور

تقديم

"لكل فعل رد فعل"، مقولة شهيرة ومتداولة لعبت دورًا هامًا في ظهور الوجودية؛ حيث الرد على الإمبراطورية العقلية بشكل عام، والهيجلية بشكل خاص. بالتجربة الفردية والموقف العيني الحر، بما يجعل الفرد مِتميزًا وفريدًا من نوعه، كي يكون وجوده وجودًا أصيلًا. على الإنسان كي يكون كذلك أن يتخلص من الشوائب المقيدة له، والتي قد تتمثل في العادات والتقاليد، والروتين، والضغوط الاجتماعية، والمذاهب،... إلخ.

التخلص من تلك المكتسبات الزائفة يتم عن طريق الفعل، والموقف الأصيل، والإختيار الحر، والمسئولية عن هذا الاختيار. تنقية أصيلة للأفكار تتمثل في تجربة غنية بالحوار والتوتر والصراع العنيف، مفعمة بالآلام المحتملة وغير المحتملة، تعد حالة من أقوى حالات "التوقان المعرفي".. إنها تجربة العزلة.

1-الأنـــا والعزلـــة

أ. العزلة والاغتراب

لغويًا: عَزَلَهُ- عَزلًا: أبعده ونحاه، ويقال: عَزلهُ عن منصبه. كما يقال: عزل المرضى عن الأصحاء، أي أنزلهم في مكان منعزل إتقاء العدوى. و "العُزلَةُ": الانعِزَالُ. وفي القرآن الكريم: ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي الابتعاد والتنحي عن الأشياء والأشخاص. و(غَرُبَ) عن وطنه- غربة: إبتعد عنه فهو غريب. و (الغربة): النَّوى والبُعْدُ.(1) كذلك يقال أن يغترب يعنى أن يكون الآخر(2).

(*) باحثة ماجستير فلسفة معاصرة، قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

(1) مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز ، 2003، صــ447

(2) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007، صــ75

فلسفيًا: "الاغتراب" يفيد عملية تحويل منتجات النشاط الإنساني والاجتماعي إلى شيء مستقل عن الإنسان ومتحكم فيه. ويذهب كارل ماركس (K. Marx 1883 –1818) إلى أن الاغتراب Alienation يعني فقدان الإنسان لذاته، وذلك من خلال الفحص النقدي لوضع العامل في النظام الرأسمالي، فالعامل فيه مغترب عما ينتجه؛ لأن الإنتاج ليس لإشباع الحاجات الإنسانية، وإنما لزيادة رأس المال. ثم هو مغترب في عملية الانتاج؛ حيث العمل لا يعبر عن تحكم الإنسان في الأشياء، وإنما عن تحكم الآلات والتنظيم الرأسمالي... فهو مغترب عن ذاته الحقيقية، أي عن الإنسانية الكامنة فيه، وبذلك يتحول إلى سلعة[1].

الاغتراب Alienation يعني أن الإنسان يضيع نفسه عندما يصبح غريبًا عنها، عندما يفقد حريته ويصبح مصهورًا في مجتمع لا يعترف له بأي استقلال ذاتي.

إذا بحثنا في العلاقة بين العزلة والاغتراب نجد أن من نتائج "الاغتراب" التوحد والعزلة، لكنها عزلة الجسد Isolation لا عزلة الروح؛ فاغتراب الجسد هو الاغتراب عن الوطن، وهذا اغتراب مشترك بين الناس جميعًا.

يذهب كارل ياسبرز (K. Jaspers 1969- 1883) إلى أنه يُستخدم في الغالب اصطلاحي غريب Fremd وغربة Fremdheit على نحو أن الإنسان يكون غريبًا عن ذاته عندما يقف أمام العالم بوصفه "موضوع" للمعرفة.[2] كذلك يتحدث باول تيليش(P. Tillich 1965-1886) عن الانفصال Separtion بوصفه يحمل معنيين: أحدهما إيجابي يقصد به التفرد Individualization، والآخر سلبي بمعنى الاغتراب Estrangement، أي الاغتراب والصراع بين الله والإنسان، وبين الإنسان والإنسان. فتيليش يرفض الاغتراب الذي يطمس فردية الإنسان ويستأصل إنسانيته.

من ثم نجد أن الاغتراب أعم وأشمل من العزلة؛ لأنه أحد مسبباتها، فقد يشعر الإنسان بالغربة عندما يكون بعيدًا عن وطنه وأهله، أي غربة مرتبطة بالابتعاد عن المكان. وقد يشعر

---

(1) المرجع السابق نفسه، صــ76

(2) يقول ياسبرز: "إن العالم كموضوع للمعرفة هو شيء غريب، أنني أقف على مبعدة منه.. وهو بالنسبة لي آخر، إنني موضع لا مبالاته، ولا أشعر بالأمن فيه؛ لأنه لا يتحدث لغة شيء قريب مني، وكلما اقتربت منه بحسم على صعيد معرفي شعرت بالضياع في هذا العالم.."، ريتشارد شاخت، الاغتراب، ترجمة: كامل يوسف حسين، دار شرقيات للنشر والتوزيع، طـ2، 1995.

بالغربة وهو داخل المكان وسط الناس، وهى أشد إيلامًا وقسوة فيبتعد وينعزل. لكن العزلة المقصودة ها هنا تلك التي تحوي المعنيين معًا، الجسدية والروحية؛ تلك العزلة الضرورية لإيجاد الذات، والمؤقتة حتى لو استمرت بعض الشيء روحيًا.

ب. العزلة والانطواء

إن الانطواء Introversion ضد الانبساط Extraversion يعنى: الاتجاه إلى الداخل والانتباه لأحوال الأنا، والذهول المصحوب بإعتزاز النفس، وعدم مؤالفة البيئة. ويتميز الشخص المنطوي على ذاته بحساسية بالغة تحمله على التكتم والتلميح والرمز..[1]. والعزلة الوجودية ليست تلك العزلة المرضية المتمثلة في الانطواء، بل إنها أقرب للإستبطان Introspection الغوص في باطن الشيء. هذا المعنى يطلق على ملاحظة النفس الفردية لذاتها، ملاحظة لغاية نظرية، تنقسم هذه الغاية لقسمين: الأول، معرفة النفس الفردية من جهة ما هى فردية. والثاني، معرفة النفس الفردية من جهة ما هى نموذج للنفس البشرية العامة، أو نموذج لكل نفس مهما يكن نوعها. وسيتم التركيز –في هذا البحث– على القسم الأول من الغاية النظرية.

العزلة المرجوة مفيدة وليست ضارة، تجعل الأنا أمام نفسها؛ لتعلمها وتفهمها من داخله، ثم تتمسك بها وتنفتح على العالم والأنت والنحن...إلخ، دونما فقدان لوجودها الذاتي الأصيل. ومن ثم هى عزلة مؤقتة؛ لأن العزلة المطلقة أو المغلقة تمامًا تعد شيئًا مستحيلًا، بل تعد الموت بعينه؛ لأن المرء بذلك يتقوقع في "أناه" ويصبح "عبدًا" لنفسه، والوجودية تدعوا للحرية وليس للعبودية.

ج. أسباب العزلة

إن للعزلة أسباب عدة متشابكة ومتشابهة نذكر منها:

1. انخراط المرء الدائم في الجموع، فى شبه اتصال مستمر، ثم تحدث أشياء –كالاختلاف التام في وجهات النظر أو الصراع من أجل بقاء الأنا، وإخفاق "الأنا" في إقامة علاقة مع "النحن".. إلخ– فيترك هذا الجموع "روحيًا"؛ فلا سبيل للتفاهم. وكذلك يتركهم مكانيًا

(1) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، 1982، صـــ164.

ويضحى وحيدًا. "فإخفاق الأنا في إقامة العلاقة مع النحن، يؤدي إلى الشعور بالعزلة.."[1].

2. قد نجد المرء يبحث بذاته عن العزلة/ الخلوة؛ فالنبي ﷺ كان له غار حراء، يأوى إليه في أيام معدودات، والمسيح عليه السلام كانت له البرية، كانت له الصحراء يخلو فيها ليرى أوضح وأعمق. الرهبان لهم الصوامع، والعلماء لهم المعابد والمراصد، كلها بعيدة عن الناس، وكلها من أجل أنفسهم، ومن أجل الناس أيضًا.

يؤكد رائد الوجودية سورين كيركجورد (S. Kierkegaard 1885- 1813) على أهمية الاختلاء بالنفس، وغوص الإنسان في أعماق وجوده الخاص، كي يعي ذاته ويحافظ عليها وسط تغير الحياة الذي لا ينتهي عند حد، فيقول: "إن صمتهم ملائم لمصلحتي –صمت الأصدقاء– من حيث أنه يعلمني أن أسدد نظرتي إلى نفسي، ويحفزني إلى إدراك ذاتي. تلك الذات التي هى لي، وأن أحافظ على ثباتي وسط تغير الحياة الذى لا ينتهى عند حد، وأن أدير نحو نفسي تلك المرآة المقعرة التي كنت من قبل أحيط بنظرة فيها الحياة خارج ذاتي"[2]. ويجعلها نيقولاس برديائيف (N.Al. Berdyaev 1874 -1948) حقًا مقدسًا[3].

3. قد تكون "الأنا" منخرطة في الــ "نحن" ومنسجمة معها، متعايشة في تفاهم وائتلاف عجيب، تجتهد وتمنح... إلخ، وإذ فجأة تجد أنها لا تشعر بنفسها، بل لا تجدها! لقد ضاعت وسط الجموع، أضحت جزء من القطيع، من إطار الدائرة المغلقة والمتحركة على الدوام. وكـــنها كانت في ثُبات عميق، ثم استيقظت على فجيعة!.

أضحت "الأنا" لا تعرف نفسها؛ لأنها مليئة بالشوائب الكثيفة التى أخفت ملامحها. ولكي تجدها لابد من "التطهير"، وهذا لن يتأتى إلا بـــ"العزلة" وإن كانت مؤقتة أو حتى

---

(1) نيقولاس برديائيف، العزلة والمجتمع، ترجمة: فؤاد كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982، صـــ93

(2) ريجيس جوليفيه، المذاهب الوجودية من كيركجورد إلى سارتر، ترجمة: فؤاد كامل، دار الآداب، الطبعة الأولى، 1988، بيروت، صـــ30. ويضيف كيركجور في الموضع ذاته: "إن هذا الصمت يعجبني، إذ أرى نفسي قادرًا على بذل هذا الجهد، وأشعر بأنني كفء للإمساك بتلك المرآة، أيًا كان ما تطلعني عليه؛ مَثلي الأعلى أم صورتي الهزلية."

(3) نيقولاس برديائيف، العزلة والمجتمع، مرجع سابق، صـــ 96.

للحظات. فيقول ياسبرز في ذلك "قد نجد الاستقلال خارج العالم، في العزلة والانخلاع عن الدنيا، إذ أن أحدًا لا يستطيع أن يكون على اتصال بغيره إلا إذا كان محققًا لذاته على الأصالة، وقادرًا على أن يمكن لذاته في الخلوة"[1].

السبب الأول اضطراري، والآخرين إختياريين ومؤقتيين، وسنصوب الضوء على هذيين السببين في النقاط القادمة.

د. الأنا والعزلة

أنا Ego الذات التي ترد إليها أفعال الشعور جميعها، وجدانية كانت أو عقلية أو إرادية، وهو دائما واحدًا مطابق لنفسه وليس من اليسير فصله عن أعراضه. ويقابل "الغير" و "العالم الخارجي"، وهو أساس الحساب والمسئولية[2]. فالإنسان يجد أناه قد اضمحلت، وأضحت كيانًا غريبًا عنه.. وسط العالم الخارجي، الجموع، المذاهب والقوانين والأعراف الاجتماعية، الروتين، والأشياء التي صنعها هو بنفسه. بعد أن كان حرًا، وصانع القرار، سيد نفسه ومواقفه، أضحى عبدًا واهنًا مكبلًا بالقيود.

صار الإنسان "مجردًا عن" ذاته الحقة، فماذا يفعل إذن؟! لابد أن يحيا، والحياة ترتبط بذاته "المفقودة"، فلا مفر إذن من الانقلاب Conversion، الانقلاب على كل أنواع السلطة التي تجرد الإنسان من إنسانيته، وتجعله جزءًا من قطيع. إنقلاب يعكس المرآة المعرفية- تلك المرآة المقعرة التي حدثنا عنها كيركجارد وهى مقعرة لتجمع "أناي" في وحدة متماسكة وفريدة، وليست محدبة لأنها ستنثر وتشتت- فبدلًا من عكسها للعالم الخارجي، تعكس ما بداخل "الفرد"، فتصبح حركته دائمًا من الداخل إلى الخارج. و "الحق إن المعرفة إقتراب من "الحق"، يتم عن طريق التجربة الشخصية، إنها عملية من الداخل، من الذات إلى الخارج، إلى غير الذات Non-Self"[3].

يبدأ الإنسان في غلق نوافذه الخارجية عن قصد.. تنعكس الأنا على نفسها، وتتأمل أعماقها، فتمتلك ذاتها، وتكتسب حريتها وتؤكدها في آن واحد.

---

(1) كارل ياسبرز، مستقبل الإنسانية، ترجمة:عثمان أمين، الدار القومية للطباعة والنشر، 1963، صـــ63.

(2) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، صـــ95

(3) نيقولاس برديائيف، الحلم والواقع، ترجمة: فؤاد كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، صـــ91.

قمة الذاتية تتمثل في العاطفة –أو الوجدان– فهى أكمل تعبير عن الوجود. فالوجودي يبغي العثور على الحقيقة، وهى لا تنحصر في منطوق موضوع من موضوعات الفكر، بل لا نجدها إلا في العاطفة. فيقول كيركجارد: "إن النتائج التي تتوصل إليها العاطفة هى وحدها الجديرة بالثقة، وهى وحدها الكافية في البرهنة.."[1].

التأمل المستمر للذات يجعلني أصل لإمتلاكها، تأمل لا نهائي أضع فيه ذاتي دائمًا موضع إمتحان...[2]. وهذا الأمر يذكرنا بالرياضات الصوفية، تلك التي ترنو الحقيقة والوصول إلى الحق، بحيث تتخلص من كل الشوائب والحشود على نحو أعمق، فتجعل الوعي "فارغ"، في حالة خواء من جميع المحتويات التجريبية. ويعبر عن ذلك إيكهارت (1260–1360 M.Eckhart) حينما يقول: "لو أنك كنت تريد أن تمر بتجربة ذلك الميلاد النبيل، فلابد لك أن تبتعد عن الحشود كلها. والحشود هى عوامل النفس ونشاطها: كالذاكرة، والفهم، والإرادة وكل تنوعاتها.."[3]. وبعيدًا عن تحديده لهذه الحشود والسبب في ذلك، فإن الطريق إلى ميلاد الذات، ذاك الميلاد النبيل، هو جعل الذهن صاف من كل مضمون تجريبي.

لتحقيق ذلك السلام الأقصى عند إيكهارت وغيره من صوفية المسيحية وغير المسيحية في تجربة عالمية تُدعى التجربة الصوفية الانطوائية–الاستبطانية، والتي تحدث حالة من حالات المعرفة التي قد تجاوز الحواس والفهم، بل تجاوز كل انطباع، لابد من العزلة.[4] كذلك يذهب الإمام الغزالي (1058– 1111م) في إحيائه: "أما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل، وضبط السمع والبصر؛ فإنهما دهليز القلب، والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة..

---

(1) سورين كيركجور، خوف ورعدة، ترجمة: فؤاد كامل، دار الفجر للنشر والتوزيع، طبـ1، 1905، صـ39. وأنظر قوله أيضًا: "أنا في الواقع تأمل Reflection من البداية إلى النهاية..". من "نص أعمال المحبة" في نصوص مختارة من التراث الوجودي، ترجمة: فؤاد كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، صـ26.

(2) أنظر قول ياسبرز: "إنني لا أكون نفسي حقًا إلا إذا امتلكت نفسي، وهذا لا يكون إلا بتأملي لنفسي باستمرار. هذا التأمل يستمر إلى غير نهاية، وفيه أضع ذاتي دائمًا موضع الامتحان...إلخ" في دراسات في الفلسفة الوجودية، عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1966، صـ143.

(3) ولتر ستيس، التصوف والفلسفة، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي للنشر، 1999، صـ128.

(4) المرجع السابق نفسه، أنظر قول إيكهارت : "إنها الوعي الموحد الخالص الذي يمحى فيه إدراك العالم وما فيه من كثرة. هى سلام لا يمكن وصفه، إنها الخير الأقصى، وهى الواحد الذي ليس له ثان، إنها "الذات" أو "الأنا". صـ116

ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه، ومن الطين الحاصل منها، ليتفجر أصل الحوض، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر. وأما الصمت، فإنه تُسهله العزلة."[1]

التخلص من جميع المحتويات التجريبية هو الطابع الكلي العام لتلك التجربة، كي نجد الأنا الخالص، أو الذات نفسها التي ترى ذاتها منعكسة على نفسها. فالفراغ، والخواء، والصحراء، والصمت، والظلام،... الطرق المؤدية إلى الماهية الخالصة للروح الفردية.

من هنا، نجد أن الإنسان إذا نجح في خوض هذه المعركة، معركته الخاصة الفريدة، سيظفر بنقاء داخلي عميق، سيظفر بأناه وبأشياء أخرى لم تكن في حسبانه، لكنه سيشعر بعد هذا الظفر بأشياء أخر لم تكن في حسبانه أيضًا! فبعد أن يدرك المرء نفسه على الأصالة، يشعر بالوحدة والوحشة، فيريد الإئتناس والتغلب على هذا الشعور من خلال الانفتاح والعلو Self-transcendence على الذات، وذلك بالاتصال الروحى دونما إحالة ذاته إحالة موضوعية Objectification، فتصبح مزيفة.

ومن ثم العزلة المطلقة "موت"، والانفتاح التام "فقدان" أى موت أيضًا. ولما كان الفناء من أشد أعداء الإنسان، ذلك العدو الداعي إلى الحيرة والخوف والتوتر، بل والقلق. كان لابد من انتصار الأنا على هذا العدو من خلال:

2- العزلــة والعلــو

أ. الأنا والأنت:

كان الأديب الفرنسي "أندريه جيد" (A. Gide 1951- 1869) ينصح الشبان قائلًا: "ابعدوا عن الذي يشبهكم". أي يبتعدون عن الشيء الشبيه بهم، وعن الشخص الذي يتشابه معهم في كل شيء؛ حتى يجد الإنسان شيئًا مختلفًا في إنسان مختلف. فالذي لا يرى إلا نفسه في المرآة، قد حبس نفسه في نفسه، وحكم عليها بالإعدام.

غير أن فكرة العزلة تفترض دائمًا الحاجة إلى الاتصال الروحي، و"حينما يصبح الإنسان مدركًا لنفسه بوصفه شخصًا، وحينما يتطلع إلى تحقيق شخصيته، عندئذ ينبغي عليه أن يعترف أولًا: بعجزه عن الاستمرار في وجوده التنسكى، وأن يعترف ثانيًا: بالمصاعب العظيمة التى

---

(1) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، الجزء الثامن، كتاب رياضة النفس، لجنة نشر الثقافة الاسلامية، 1356هـ، صـ 138

اكتنفته من كل جانب في محاولته الهروب من عزلته، وأن يجعل من نفسه شيئًا واحدًا مع الذات الأخرى، والآنات الأخرى.."[1]. فالأنا لابد لها من الاختيار في كل الأحوال، إما أنت مغاير لها، أو أنت مساو لها، ولكن في كلتا الحالتين لا مفر من "الاتصال". هذا الاتصال الروحي "محاولة" للهروب من وحشة العزلة وذلك بإنعكاس الذات إنعكاسًا صادقًا حقيقيًا في ذات أخرى، مع الحذر من أن يكون هذا الانعكاس غير حقيقي؛ لأنه سيوقظ الشعور بالعزلة. "فالذات تسعى إلى الاتصال الروحي بــ"أنا" أخرى أو بــ"أنت".. فهي تتلهف إلى أن تجد ذاتًا أخرى، صديقًا يريد أن يتوحد معها وبذلك يؤكدها ويعجب بها، ويصغي إليها، وبإختصار أن "يعكسها""[2].

طبيعة هذا الاتصال تتمثل في كونها حوار وسؤال متبادل؛ فالأنا موجود، والأنت أيضًا موجود. إنها مباراة رائعة تجعل الثنائية وحدة، والوحدة تميّزًا[3].

بفضل الحرية والاختيار الاضطراري، والمخاطرة المحملة باليأس والقلق، قد تكون هنالك مسافات بينية بين الأنا والأنت، تلزمها بالعود القهقري "للعزلة" –على الرغم من أن التجربة ذاتها ديالكتيكية؛ خروج وعودة، علو وبطون باستمرار، فهى بمثابة نقطة إرتكاز الأنا الحقة– ولإجتياز هذه المسافات لا تجد "الأنا" أمامها سوى الصداقة والحب[*].

ب. الأنا والمجتمع:

من البيّن أن علاقة الأنا بالعالم "علاقة ثنائية"؛ فهي تستلزم من جهتها شعورًا بالعزلة، ومن جهة أخرى تفسر تاريخ العالم باعتباره جزءًا من مصيرها الشخصي. أي أن حياة المجتمع اليومية، قد تكون ذات أهمية في علو "الأنا"، ومعرفتها لأناها بشكل ما. "فالمجتمع كامن في الأنا بمعنى خاص. ويعتقد البعض أن الوعى يرتبط بالجزئي والفردي، واللاوعى بالعام، وما فوق الفردي.. وهذا صحيح، إذا أخذ بمعنى أن تاريخ العالم كله، وتاريخ المجتمع وكل

---

(1) نيقولاس برديائيف، العزلة والمجتمع، مرجع سابق، صــ94

(2) المرجع السابق نفسه، صــ94.

(3) يقول كيركجور: "يظل كل شخص هو هو حين يقف في مقابل الآخر الذي يختلف عنه، ولكن مع ذلك تخصب شخصيته الخاصة بقدر ما يستقبل من شخصية الآخر، وبقدر ما يستجيب لندائه، وهنا يكون البعد تقاربًا، والمسافة اتصالًا، والثنائية وحدة، والوحدة تميّزًا". ريجيس جوليفيه، المذاهب الوجودية، مرجع سابق، صــ46.

(*) سيتضح هذا لاحقًا في الفقرة (د).

العناصر التي قد تبدو مجردة وبعيدة بالنسبة للذات الواعية، التي لا تكشف أبدًا مضمونها جميعه.. إن ذلك كله كامن في أعماق الأنا اللاواعية"[1].

لكن في معظم الأحيان تؤول المحاولة بالفشل، لأن الإنسان قد ينخرط في المجتمع، ويتقلد المناصب والمهام الاجتماعية التي لا تتناسب مع "أناه" تلك التي عرفها، فيبتعد رويدًا رويدًا عن ذاته الأصيلة، ويقترب من الذات المزيفة. وفي هذه الحالة قد يكون مضطرًا؛ تبعًا لظروف ما، لكنه قد يكون في أحيان أخر على عِلم بفقدان أناه، فيمكث منسجمًا ومتكيفًا مع البيئة الاجتماعية، ويضحى عالة على تراث مشترك، أيًا كان هذا التراث. أو قد يحدث له نوع من اللامبالاة بمصيره ومصير مجتمعه، فكل الأشياء متساوية!. والأكثر قسوة أنه قد يصير هو شيئًا من الأشياء التي يمكث فيها.

إذن قد يفقد الانسجام الداخلي والتكيف مع المجتمع، فيتمرد وينعزل. يتمرد إعتراضًا على الواقع الاجتماعي، وينعزل حفظًا لأناه وتقويتها، لكنه قد يظل منعزلًا تمامًا ومتوحدًا مع ذاته لأقصى درجة، وهذا قطعًا مرفوض؛ لأنه إبادة وفناء. وقد يخرج من عزلته بعد سبر أغواره، فتصبح مسألة العلو والبطون مسألة دياليكتيكية صرفة؛ للحفاظ على كنه الأنا، فيستطيع بعد ذلك الشعور بالعزلة الحميدة والمجتمع في آن واحد.

ج. <u>الأنا والله:</u>

شعار "الدين لله والوطن للجميع"[*] يُحقق فكرة جوهرية لدى الوجودية، فكرة "نقض السلطة". أي سلطة، وبخاصة السلطة الدينية المتمثلة في "الكنيسة"؛ فالكنيسة "كمؤسسة" تعمل على تأسيس المجتمع باللاهوت العقلاني. أي أن الإيمان بالله ووجوده، يتم إثباته ببراهين تنتمي إلى ميدان الماهيات التصورية، المتعلقة باستدلالاتنا الإنسانية. بالاضافة إلى التعامل مع النظريات الجامدة، والطقوس التي قد تخلو من المعنى.

ومن هنا، وفي خضم الدفاع عن الذات، يتبارى أعلام الوجودية –وخاصة المؤمنة إن جاز هذا التعبير– في ثورتهم على هذا الإستبداد، فالطريق إلى الله مليء بالأشواك والعذاب

---

(1) نيقولاس برديائيف، العزلة والمجتمع، مرجع سابق، صـ97.

(*) إنه الشعار العظيم المدافع عن الحقوق الإنسانية المتساوية، والذي أطلق في ثورة مصر 1919.

والدموع[1]. وحينما يصبح الدين مجرد ظاهرة إجتماعية موضوعية، فإن الشعور بالعزلة لا يمكن العلو عليه من الجهة الأنطولوجية، و "إذا خفت حدة هذا الشعور، فذلك يعود إلى دخول الأنا في العالم الموضوعي والمجتمع، حتى وإن سمى هذا العالم بالكنيسة.."[2].

إذن كيف يؤمن الإنسان بالله ويعلو على عزلته؟ كيف يجد الله ويؤكده؟ وما هى طبيعة الصلة بين الإنسان والله؟

إن الإيمان بالله ووجوده يتم من حيث "الوجود الفعلي" وليس "المثالي"؛ عن طريق البحث عن ذاتية الذات. فالذاتية -كما قال كيركجارد- هى المنهج وهى الغاية جميعًا، ذلك أننا في أعماق الذاتية نجد "المطلق". فالإنسان حينما يشعر بالوحشة العنيفة من الآخر والمجتمع، يكون فى أقصى حالات التوتر والصراع.. تكاد تكون "أناه" مندثرة، فيقبع على ذاته ويتأملها، بل ويزيد من سبر أغوارها حتى تضحى مرآة مصقولة صقلًا لم يسبق له مثيل. تزداد نورًا وكشفًا جليًا، حتى تظفر باللامتناهى[3].

السبيل الوحيد للوصول إلى الله هو "القلب"، وليس العقل؛ لأنه ليس فيه غناء في هداية الإنسان إلى الإيمان الحق. ولذلك نجد المتصوفة جميعًا يلجأون إلى القلب واستشعار الحب اللإلهي، طلبًا لنور الهداية والإشراق العلوي. وبتنقية هذا القلب وتصفيته حتى يصبح شفافًا، تكون أمام الله وحدك، منعزلًا عن القطيع، متوحدًا إزاء الله. أكون "وحدي إزاء الله وحده"[4].

وأخيرًا، الإيمان أمر يتعلق بذات عينية فردية، لكنها لا تستطيع -مع ذلك- أن تختلط بالأنا التجريبية؛ لأنها تنتمي إلى مجموعة من التحديدات القابلة لأن يحدد مكانها "موضوعيًا". فلا

---

(1) عن قول كيركجور: "الطريق الذي ينبغي علينا أن نسير فيه، أن نعبر جسر التنهدات حتى نصل إلى الأبدية.. فالطريق إلى الله مليء بالأشواك والعذاب والدموع." نصوص مختارة من التراث الوجودي، ترجمة فؤاد كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، صـــ29.

(2) نيقولاس برديائيف، العزلة والمجتمع، مرجع سابق، صـــ116.

(3) يقول كيركجور: "وبهذا التوتر الحاد والصراعات المحتدمة.. بهذا البركان الذي يحيا الإنسان على حافته، يكون "الوجد"، الذى هو "عصب التصوف"، وإشارة الوصول، وعلامة الجمع والاتحاد". نصوص مختارة من التراث الوجودي، مرجع سابق، صـــ29.

(4) كيركجور، نصوص مختارة من التراث الوجودي، مرجع سابق، صـــ33.

وجود لإيمان بوجه عام، والله هو السر Mystery[1] بلغة جابريل مارسيل (1889-1973 Gabriel Marcel) السر الذي يواجهنا باستمرار وجهًا لوجه.. السر الذي لا يمكننا أن نطبق عليه علاقات الضرورة والعلية والسيادة وغيرها من العلاقات في العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي. "هو السر الذي يحاول الإنسان أن يعلو إليه، ويدخل معه في علاقات حية وتواصل خلاق."[2] لكن هل هذا يعنى أن الإنسان لن يكون مع الـ"نحن" أبدًا؟ أعتقد أن هذا يتوقف على:

د. <u>الأنا والحب:</u>

"بالحب وحده نكون قادرين على مواجهة الوجود دون إحالته إلى ملك، أو إلى موضوع، أو مشهد.."[3]. في حالة الدراما الصاخبة، التي يكتشف فيها الإنسان "الله" -عز وجل- داخل نفسه، فيرى ما لايراه أحدًا من الجموع، يكتسب قوة روحية رائعة، ويعيد خلق الترتيب الطبيعي للحياة، ويخلق حياة جديدة، وقيمًا جديدة. وفي خضم هذه المعرفة الشعورية، يشعر الإنسان بنوع من الالتزام. إلتزام ينبثق من أعماق وجوده، إلتزام نحو نفسه ونحو الآخر، في حركتيه الصاعدة والهابطة. "فالإنسان يجرؤ على الارتقاء إلى الله، وفي هذا السبيل يكتسب قوة روحية.. لكنه مع ذلك لا يستطيع أن ينسى هؤلاء الذين ما برحوا في مرتبة أدنى، ضعاف الروح..، وهنا يرغمه باطن نفسه على البدء في الحركة التنازلية؛ حتى يتمكن من مقاسمة كنوزه الروحية.."[4].

الحب يستشري مفعوله السحري؛ بأن يعمل على توطيد الاتصال الفعلي الحق بين "الأنا" و "الآنات" الأخرى. فهذا الحب العاشق الصادق هو وسيلة تخرج بها "الأنا" من إكتفائها الذاتي،

---

(1) يقول مارسل: "إن كل وجود فردي، باعتباره وجودًا مغلقًا (وكذلك باعتباره لا متناهيًا) إنما هو رمز أو تعبير عن السر الأنطولوجي.. السر الذي أشتبك فيه أنا نفسي، وبالتالي لا يمكن التفكير فيه إلا بوصفه مجالًا تفقد فيه التفرقة بين ما هو في نفسي، وما هو أمامي دلالتها وقيمتها الأصيلة. فبغير السر تصبح الحياة غير صالحة لأن نتنفسها." ريجيس جوليفيه، المذاهب الوجودية، مرجع سابق، صـــ290، 291.

(2) محمد مجدي الجزيري، الحرية والحضارة عند برديائيف، رسالة دكتوراة، الآداب، فلسفة، جامعة القاهرة، 1979، صـــ1940.

(3) ريجيس جوليفيه، المذاهب الوجودية، مرجع سابق، صـــ245.

(4) نيقولاس بردیائیف، الحلم والواقع، مرجع سابق، صـــ72.

وهو الوسيلة الفعّالة التي تساعدها على القيام بمهمتها ومسئوليتها تجاه "الآخر". بل إن كيركجارد قد جعل من الحب طريقًا للفهم، وأساسًا للمعرفة والاتصال الروحي[1].

جدير بالذكر أن الحب المقصود هنا ليس المتمثل في الجنس، بل المتمثل في العاطفة Emotion، ولذلك يتم الربط بين الحب والصداقة، "فلا يحدث الاتصال الروحي الحقيقي، والانتصار على العزلة إلا عندما تتوحد "الأنا" مع "الأنت" في حالة الحب والصداقة"[2]. كما أنه لا يكون الحب المقصود هو الجنس؛ لأن الجنس ينتمي إلى النوع Genus، أما الحب فينتمي إلى الشخصية Personality. "فما الحب إلا انتصار الشخصية على النوع والجنس، اللذين يخلوان من التفرد والفردية. وعندما يكون الحب قويًا، فإنه يتصف بعمق يمكن أن يصل إلى اللانهاية. أما الجنس -فعلى العكس- يحمل في طياته وصمة التناهي.. "[3].

فالإنسان حينما يصل إلى الله كشفًا Revelation، يجد الجمال في الخليقة "مرآة" للجمال الإلهي، فلا يشعر بيأس أو وحشة منهم[*]... من الخلق أجمعين، بل يشعر بأمل وتفاؤل وإئتناس، واتصال روحى خلاق.

الهدف هنا إنسان يجد ذاته، ثم يقوم بمعجزة... الهدف يتمثل في المجددين، والمبدعين، والمصلحين، وأصحاب الثورات الروحية، و "ليس من شك فى أن مجرد إثارة الموضوع

---

(1) يقول كيركجور: "الطريق الأساسي للفهم هو أن تصير كالمحبوب؛ لأن المرء لا يفهم إلا بمقدار ما يصبح متحدًا مع الشيء الذي يحبه..". نصوص من التراث الوجودي، مرجع سابق، صـ24.

(2) نيقولاس برديائيف، العزلة والمجتمع، مرجع سابق، صـ112.

(3) نيقولاس برديائيف، الحلم والواقع، مرجع سابق، صـ85. وقد تكون هذه الفكرة ذاتها لدى المتصوفة بشكل أو بآخر، حينما نجد مايستر إيكهارت يقول: "على الإنسان أن يتعلم أن يشارك ربه في الفعل" ثم يستطرد قائلًا: "وليس هذا معناه أن ينصرف الإنسان عن الباطن أو يسقطه أو يعزف عنه، بل ينبغي عليه أن يتعلم كيف يفعل فيه ومعه ومنه، بحيث يترك الباطن "ينفتح" على الواقع، ويرشد الواقع إلى الباطن، ويُعَوِّد نفسه بهذه الطريقة على الفعل الخالص". أنظر ولفجانج ستروف (Wolfgang Struve)، فلسفة العلو، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، مكتبة الشباب، 1975. صـ260.

(*) يقول ابن عطاء الله: "إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شيء، ولغيبتهم عن الله في كل شيء، ولو شهدوه في كل شيء، لم يستوحشوا من شيء"، ويقول ذو النون المصري حين سُئل عن الأنس: "أن تأنس بكل وجه صبيح وكل صوت فصيح، والله تبارك وتعالى فيما بينك وبين ذلك.". أنظر: فاروق شوشة، أحلى 20 قصيدة في الحب الإلهي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997. صـ54، صـ24

"محاولة" لمطالبة الإنسان أن يقوم بمعجزة. غير أن المعجزة قائمة فعلًا في "الخلق" الذي لا يتلائم مع أي نظام معروفة قوانينه، ويتطلب لتفسيره "فاعلًا" يعلو إمكانيات عالم معطى محدد"[1].

خاتمة:

إن روح كل إنسان لها وجودها المستقل، ولها حقوقها وإمكانياتها التي ليس لأي شيء سيطرة عليها. على الإنسان أن يوجد بشتى الطرق، فلكل منا طريقًا يوجد به ومن أجله، لطالما يحيا ولا يعلمه، وبذلك يكون ميتًا بين موتى وأحياء. ولا أحد يستطيع أن يرشد غيره، ومن يعتقد أنه يهدى غيره إلى الطريق، فما هو إلا واهمًا عظيمًا.

نشأت الفلسفة الوجودية على كل ما هو فردي –بالأحرى شخصي– وفريد ونادر، كل ما لا يخضع لأي شكل من أشكال السلطة. فكانت تجربة العزلة، ذات دور رئيسي في معرفة كل ما هو فريد وفذ لدى كل "أنا"، وهى تجربة خاصة ومميزة لا غنى عنها، تجعل حركة الحياة فى إيجاد: "الذات، فالله، فالعالم".

****

(1) نيقولاس برديائيف، الحلم والواقع، مرجع سابق، صـــ218.